الفصل الأول

الانسان والتاريخ

رحلة طويلة شاقة فى مسالك وعرة ودروب متعددة ... رحلة بدأت مع بداية الإنسان على الأرض وما زالت تكتب فصولها وحوادثها .

إنها قصة الإنسان على هذه الأرض فى محاولاته المتعددة المستمرة لأن يهيء لنفسه حياة أسعد وأكثر أمناً . وتشبعت محاولاته بألوان من الكفاح تعددت أسلحته ، ولكننا فى هذا الكتاب سنستبعد كل هذه الأسلحة إلا سلاحاً واحداً.

بسلاح التربية يحاول الإنسان منذ أقدم العصور أن يمكن لنفسه على الأرض ، وأن يمضى سنى حياته فى أمن وسعادة . ولكن نظرة فرد ما قد تختلف عن نظرة فرد آخر فى معنى السعادة والأمن وفى وسائل تحقيقهما . من الإنسان من يلجأ إلى الفكر الرشيد والحكمة والتعقل ليحقق ما تصبو إليه نفسه ، مستغلا إمكاناته وقدراته ، فاذا عجز عن تحقيق كل ما يطمح إليه اقتنع بما حصل عليه .

ومن الناس من يحقق أطماعه وآماله بحد السيف وبالقوة ، ومنهم من يلجأ إلى الخديعة أو إلى النفاق والرياء ليحقق حاجة فى نفسه . ومن الناس الضعيف المستذل ومنهم الشديد المزمجر ، ومنهم الوديع اللطيف ومنهم الشرس العنيف .

وكل هؤلاء وأولئك بشر ، تلعب الصفات الإنسانية أدواراً متباينة عند كل.

وقد عرفنا كل هذه الأنواع مما قرأناه فى سير الأقدمين وقصص المحدثين وعرفناهم من لقاءاتنا معهم كل يوم ، فى العمل ، فى الطريق ، فى المقهى .. فى قاعة الدرس ، وحتى بين جدران البيت :

ولعلنا نتساءل : هل أنت محصلة لعوامل وراثية جسمية فحسب ؟ أم أن هناك عوامل معنوية يرثها الطفل المولود من أجداده عبر القرون ؟

إن الصينى والإنجليزى والسويدى والمصرى والكينى ... كلهم من عائلة واحدة ، هى أسرة الإنسان . وقد يختلف لون البشرة وشكل العين ولون الشعر . كما تختلف العادات والقيم . وإذا كانت الدراسات على الصفات الجسمية قد قطعت شوطاً طويلا ، فان المباحث عن الصفات الثقافية تحاول ألا تظل متخلفة .. فى عالم ما كان فى يوم من الأيام أشد قرباً منه الآن .

لهذا فأرجو أن أقدم بعض المعلومات عن الحضارة وعن الثقافة ، حيث أن هذا الكتاب يتناول قصة الفكر التربوى ، الفكر الذى تمخض عن محاولات بشرية فى مجتمعات صغيرة وكبيرة ، قديمة وحديثة . مجتمعات ليست متشابهة ، وإن كانت هناك صفات عامة مشتركة بينها .

الحضارة والثقافة

أنتج تطور البشرية عبر القرون حضارات وثقافات عديدة . ولعل الحكم على هذه الحضارات والثقافات يتحدد بمعيارين نسبيين . والمقصود بكلمة نسبى هنا أن هذين المعيارين انبثقا من التفضيلات القيمية البشرية . واحد من المعيارين هو اتساع وعمق المحتوى الكثيف لهذه الثقافات الذى استمر مئات السنين فاعلا ومؤثراً . ويضم هذا المحتوى الفنون والفلسفات والعقائد والعلوم والأخلاق والعادات وغيرها من مكونات الثقافة .

أما المعيار الآخر فهو مدى وعمق الإسهام الذى تقدمه مكونات الثقافة فى حياة الأفراد الذين ينمون فى ظلها .

ويمكن أن ننظر إلى التربية — بمعناها الواسع — لا على أنها مجرد ذلك (الفن) الذى يوقظ ويزرع وينمى هذه المكونات عند كل فرد فى المجتمع الذى تظلله ثقافة ما حسب إمكانات الفرد وقدراته ، ولكن ننظر إليها — أيضاً — على أنها المهارات التى تعمل على نقل وحفظ ثم زرع هذه المكونات فى خبرات من يرثونها .

وقد يكون هاماً فى عملية النقل تلك العناصر التى أثرت بفعالية واضحة فى تأكيد الحياة البشرية ، وفيما حل بها من تغيرات عميقة . أى هذه العناصر التى أثرت فى استمرار حياة الإنسان على ما كانت عليه . والتى أثرت أيضاً فيما أصاب هذه الحياة من تشكل وتغير . ومعنى هذا — أيضاً — أن تاريخ البشرية هو استمرار داخلى يحدث فيه أن فرداً أو جماعة أو مجتمعاً يستخدم ثم ينقل جانباً أو جزءاً من محتوى الثقافة إلى جيل لاحق .

هذا ما نعنيه عندما نقول إن الحاضر فى نظرته إلى المستقبل يمسك بالماضى . فالحاضر متأثر بالماضى ومؤثر فى المستقبل .

ولكى نفهم الحاضر ونقيمه لا بد من معرفة الماضى .

وللتربية اليوم أصولها الماضية وتطلعاتها المستقبلة ، وتؤسس الأنظمة التربوية والنظريات التى تحددها وتوجهها على الحضارات والثقافات .

وعلينا أن نفرق بين الحضارة وبين الثقافة فى علاقتهما بالتربية . فالحضارة تحدد مدى واتساع النظام التعليمى . أما الثقافة فهى تمد هذا النظام بمحتوياته الأساسية . فمثلا تحدد الحضارة من يجب أن يتعلم ؟ ولأى مدة ؟ ومن يقوم على تعليمهم ؟ ولأى الأهداف ؟ وهذه كلها تحددها القوانين المدنية والنظام الاجتماعى .

وتحدد الحضارة أيضاً كون هذا التعليم إجبارياً أو إختيارياً ، عاماً أو خاصاً ، وكونه فى المرحلة الأولى مشتركاً ، أو تكون هناك مدارس للبنين ، وأخرى خاصة للبنات ، ثم طول اليوم المدرسى والعام الدراسى .. الخ ، وكل هذه تحددها قوانين . وهذه القوانين تحدد علاقة الفرد بالمجتمع .

أما الثقافة فان دورها مرتبط بتحديد المعارف والمهارات والفنون والقيم ، والاتساع والعمق فى المحتوى الذى يأخذه الإنسان الفرد لتوجيه الروحى والعقلى .

تمدنا الحضارة إذن بالوسائل الخارجية والمادية للتربية ، أما الثقافة فتحدد العناصر الداخلية للتربية . تمدنا الحضارة بالشكل ، والثقافة تمدنا بالمحتوى .

وعلى هذا فعندما نتكلم عن شخص مثقف ، أو شعب مثقف ، فاننا نشير إلى المحصلة النهائية لتأثير ثقافة ما على حياة فرد أو حياة شعب بأكمله . وليس معنى هذا أن فرداً ما لا يصبح مثقفاً إلا إذا هضم كل مكونات الثقافة التى يحيا فيها . فالواقع يقول العكس ، إذا أن تربية الفرد تحددها ما تخيره غيره أو ما تخير هو جزءاً منها (من جوانب الثقافة العلمية والفنية والدينية والخلقية والفلسفية والاقتصادية والتكنولوجية) .

التأكيد هنا حول ما تخيره الغير وما تخيره الفرد . فقد علت صيحات بعض المربين وفلاسفة التربية مطالبين بالمزيد من حق الفرد فى تخير ما يدرسه . ولكن تصميم فلاسفة آخرين يصر على حرمان الفرد هذا الحق . ورأيهم أن الفرد واحد فى جماعة تهيمن عليها اعتبارات تتلاشى أمامها اهتمامات فرد ما . وسجل تاريخ الفكر التربوى زاخر بمواقف غزيرة فى هذه الحرب المستمرة .

وإذا حق لى أن أدعو القارىء إلى وقفة يسيرة ليفكر فى هذه المسألة فانى أرجوه ألا يطيل الوقوف ، ففى صفحات الكتاب القادمة من المادة ما قد يعطيه وقوداً للتفكير ، وزاداً للتأمل ، ومادة يرتكز عليها .. بل إن هذا ما يأمل فيه كاتب هذا الكتاب .

وقد تشفى الغلة عجالة خاطفة قوامها أمثلة مأخوذة من سجل التاريخ : اهتمت اسبرطة مثلا — وهى مدينة إغريقية كان لها شأن عظيم فى الماضى البعيد — بتأكيد فضائل ضبط النفس والطاعة والتضحية والتحمل والشجاعة .. وكل هذا مغلف فى رداء عسكرى صارم أراده ساستها وفرضوه على مواطنى اسبرطة . فى حين أننا نجد فى مجتمع آخر تنحسر النزعة العسكرية وتخلى المجال للعناصر الخلقية والدينية والفنية كما كان الحال فى بلاد الفرس القديمة . وفى غيرها من بعض المجتمعات الآسيوية نجد أن الصين القديمة سلطت الأضواء على المحتوى الإنسانى فى الثقافة ، كما أن الهند (البرهمانية) مجدت القيم الدينية والفلسفية . وفى مصر الفرعونية صار الاهتمام إلى القيم الدينية والمهنية ، كما كان الاهتمام فى أوروبا فى العصور الوسطى موجهاً إلى القيم الاقتصادية والدينية

ثم أعلت النازية فى ألمانيا من شأن القيم العسكرية والسياسية .. وفى الولايات المتحدة الأمريكية اليوم تمجيد القيم المادية والعملية .

الثقافة

يلعب مفهوم الثقافة اليوم دوراً حيوياً كركيزة للعلوم الاجتماعية . فعلى هذا المفهوم تبنى معلوت هامة عن الصفات العامة التى يشترك فيها الإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها . وقد بدأت الأبحاث عن الثقافات منذ حوالى مائة عام . بدأت فى حماس مؤيد باتجاهات علمية ، ومتوغل فى الغابات والصحارى والأزقة والشوارع . حماس لم توقفه حدود طبيعية أو سياسية .

ولقد التقط رواد الفضاء من سفنهم آلاف الصور للأرض ، وقد تجمع صورة واحدة خمس أو ست دول ، فقد نظر الإنسان أخاه الإنسان من عل ، ولعل ركاب هذه السفن تساءلوا حينئذ : فيم هذه الحروب وهذه الاشتباكات وقد التقطتكم عدسة فى صورة واحدة ؟ التقطت الكوخ والقصر والنهر والصحراء والغابة .

ونرى مدناً شاهقة بناها أفراد من أسرة البشرية . ثم نرى قرية صغيرة بيوتها من طين وشوارعها مترية ... وجاموسة عند فلاح أغلى من ابنه . وأقدام تدب حافية على أرض وعرة ، وسيارة لا يحس من فيها بحرارة الجو وهى تسابق الريح تنقله فى رفاهية إلى حيث يشاء .

ونرى أفراداً من أسرة البشرية ارتبطت حياتهم بالكهرباء ، ومواقد لطهو الطعام ، تدفئة ، وسائل تسلية ... الخ ، وترى أفراداً لا يعرفون عن الكهرباء شيئاً ، وهؤلاء وأولئك يعيشون وتعمل أجهزتهم الجسمية ، ثم يموتون .. ولدوا ثم انتهوا . وكان لا بد من ذكر وأنثى وأشهر ينضج فيها الجنين فى أحشاء الأنثى بطريقة لم يختلف فيها البشر ثم يجىء المخاض . ونفس الصحية من الوليد . أى وليد .. ثم تبدأ الاختلافات والتأثيرات البيئية ، من تقدم وتخلف ، وغنى وفقر ، حرير وخيش ، ثم تأتى اللحظة المرهبة عندما تغادر الروح

الجسد . ويتحول الكائن الحى إلى جماد ؛ ومرة أخرى تعود المساواة الكاملة فمصير الأجسام التى غادرتها الأرواح واحد ...

ويهمنا هنا ما يحدث بين الميلاد والوفاة ، وقد نستطيع أن نقرر لأول وهلة أن الإنسان يتشكل بالثقافة ؛ وفى رأى أن هذا التشكيل يتحدى مستوى الشعور والوعى .

ومن المعروف أن أفكار الفرد ولغته وعضلاته التى تستخدم الأدوات والآلات وذوقه وقيمه قد نمت فى إطار من الأنماط الخاصة . وفى النمو معنى التدريج الذى يبدأ من طفولة الفرد متقدماً معه إلى غلومته ومراهقته ورشده . والفرد ينمو فى ثقافة ، ولولا وجود هذه الثقافة التى تحفظ مكاسب الماضى وتصهر فى بوتقتها الأجيال الجديدة والمتعاقبة لما اختلف « الإنسان العاقل » عن القرد إلا فى انتصاب القامة والتفوق فى الذكاء ... كما يقول لنتون **Linton** .

وفى الحديث عن أثر الثقافة يتكلم علماء الاجتماع والأجناس ، منهم من ابتكر تعبير « كعكة العادة » وتعبير « الفولكلور » وتعبير « طريق الجماعات » وتعنى ما بين الجماعات من اختلافات فى العادات والقيم . وقد يكون من المعلومات التى تسرك وتصدمك أن تعرف أن قبيلة ما تحرم لبس شىء أعلى من وسط الجسم ويجب أن يظل القسم العلوى من الجسم عاريا تماماً ... ونفس القبيلة اعتادت أن تقيم احتفالا لتقتل فيه المرضى من المسنين .

إذا عجبت لهذه المعلومات فثق أن أفراد هذه القبيلة لن يقبلوا موقفنا نحن من الملابس والعناية بالمرضى المسنين . بل إن بعض عاداتنا وتقاليدنا التى تضفى علينا دفئاً وأمناً سيضحك منها شعب أوربى ، بل إننا نستنكر أن تمنح ملكة بريطانيا الأوسمة الكبرى لجماعة « الخنافس » وتستنكر تقاليدنا الصداقات بين الشبان والشابات مما هو أمر عادى ومقبول فى مجتمع غربى .

الاختلافات كثيرة إذن ، ولكن كل جماعة تستشعر الأمن فى إطار قيمها وتقاليدها ... ولتنعم كل جماعة بما عندها ، ولكن على عقولنا الراشدة أن تترك هذه الاختلافات لتسبر أغوار الصفات المتشابهات . فهناك الحاجات

العامة التى تحرك السلوك البشرى .. فى أى مكان كان البشر ، وهذه يطلق عليها « العموميات » لأنها تهيمن على « الإنسان العاقل » فى أعماق الأدغال ، أو فى قاعة مكيفة الهواء بفندق حديث .

وعندما نتتبع قصة التربية ونتحدث عن التطور الفكرى التربوى فعلينا أن نضع هذه العموميات نبراساً يهدى الطريق لنا ، ولعل من الخير أن يحاول دارس الفكر التربوى أن يكون واسع الصدر فى تقبله لعادات غيره ، مهما اختلفت وتنوعت ، وألا يحاول أن يخضعها لأحكامه القيمية ، بمعنى ألا يصفها بالسوء أو الحسن طبقاً لما اعتاده هو . إن بعض الجماعات تنظر إلى المصابين بالصرع على أنهم مفوضون من قبل قوى عليا ، ولذلك فهم محل كل احترام وتقدير ، بل أن بعض نزلاء المصحات والمستشفيات العقلية قد ينالون كل تبجيل فى قبائل تنظر إلى تصرفاتهم على أنها إشارات من قوى خارقة .

خير إذن فى أن تدرس تصرف جماعة فى إطارها هى ، فيما تعنيه وما ترمى إليه ، فاذا سمعت عن رجل يتطيب ويتعطر ويكتحل فى وقت النبى عليه السلام ، فلا تحكم عليه بمعاييرك الحالية ، ففى ذلك الوقت كان هذا أمراً مقبولا متعارفاً عليه .

وقد جاب علماء الإجناس والاجتماع أرضاً واسعة وعبروا البحار والمحيطات . وجمعوا معلومات غزيرة مكنتهم من استخراج العموميات بعد غربلة ما تجمع لديهم . والعموميات بهذا المعنى هى العوامل المشتركة التى تعطينا المعلومات الحيوية عن البشرية . وكم تناسى رجال السياسة هذه العوامل بل وتجاهلوها وجعلوا جماعة تستعبد أخرى . وجماعة تتخم بالطعام وأخرى تموت جوعاً .

ولعل من أوائل هذه العموميات نزعة الناس إلى تكوين جماعات وقبائل ومجتمعات ، ثم يكونون لأنفسهم عادات وطرائق للحياة ومعتقدات حتى يقيموا صرح بنائهم الاجتماعى .

ويعرف المجتمع بأنه جماعة من الأفراد تعلموا أن يعملوا سوياً . والمجتمع بهذا المعنى ليس مجرد تجمع أفراد ، ولكن لا بد من وجود مجموعة من ألوان الولاء والعواطف التى تدفع فرداً إلى التضحية فى سبيل الصالح العام . على أن هذه الصور من الولاء والعواطف وغيرها من العناصر التى يشترك فيها أفراد المجتمع هى فى الواقع جزء من الثقافة . وهذا يعنى أن ثقافة مجتمع تختلف عن ثقافة مجتمع آخر .

وتعرف الثقافة (١) بأنها نسيج الأفكار والمثل العليا والمعتقدات والمهارات والأدوات والنتاج الفنى وطرق التفكير والعادات والمؤسسات التى يعيش فيها الفرد . بهذا المعنى فان ثقافة مجتمع تشتمل على الطرق التى يتكسب بها الأفراد ، الرياضة التى يمارسونها ، القصص التى يحكونها ، الأبطال الذين ينالون تقديرهم ، الموسيقى التى يعزفونها وتشجيهم ، الطرق التى يربون بها أطفالهم ، تنظيماتهم الأسرية ، طرق مواصلاتهم واتصالاتهم ... وغيرها وغيرها ، وكلها مما صنعه الناس فى بيئاتهم .

وإذا كانت الثقافة تختلف من مجتمع لآخر ، فانها تختلف أيضاً فى المجتمع الواحد ، تختلف من عصر إلى عصر ، وما سلوك الفرد إلا انعكاس للثقافة التى يعيش فيها . فلو نقلت طفلا مصرياً وعاش طفولته إلى رشده فى اليابان لتصرف وتكلم يابانياً بوجه مصرى وملامح جسمية مصرية . ولو — بوسيلة ما — بعث أحد أجدادك من موته منذ ثلاثة أو أربعة قرون ، وأصبح حياً اليوم لوجد أنه فى ثقافة غريبة تماماً عنه مع أنه بوجهه وملامحه مصرى صميم .

ويقول وليم جيمس James إن الفرد فى المجتمع يندفع لأداء واجبه وهو مؤمن بأن غيره من أفراد المجتمع مندفعون هم أيضاً لأداء واجبهم . فنظام الحكومات والمؤسسات التجارية وهيئة التدريس فى المعاهد العلمية

---

(١) Smith, Stanley, and Shores : Fundamentals of Curriculum Development, p. 5.

والفرق الرياضية وغيرها ، كلها تعمل على أساس أن لكل فرد عملا وواجباً يتحتم عليه عمله ، وإلا لما استكمل العمل .

العمل المشترك سمة أساسية فى المجتمع ، أى مجتمع ، المجتمع الصينى منذ ثلاثة آلاف سنة والمجتمع الروسى اليوم ، المجتمع فى غابة استوائية ، والمجتمع الذى يجلس أفراده حول أجهزة التليفزيون . وبدون هذا التعاضد يتفكك المجتمع وتسقط الحجارة ، لأن ما يعمل على تماسكها قد تلاشى .

وقد اختلفت النظرة للفرد وعمله اليوم عما كانت عليه منذ مئات السنين ، وقد أصبح المجتمع — لا الفرد — هو الوحدة الأولى فى الصراع من أجل الوجود . وقد حدث هذا عندما انتقل التأكيد فى مفهوم الثقافة من الفرد وتمركز حول الجماعة ، ومضى الوقت الذى ركز فيه فلاسفة الغرب وعلماء الدين والمربون ورجال الأعمال ، ركزوا اهتمامهم على الفرد ملقين عليه مسئولية خطاياه وآلامه وانتصاراته وهزائمه .

وجد علماء الأجناس والاجتماع اليوم أن الفرد ليس هو المسئول عن هذه المسئوليات وأنه لا يمكن فهمه فى مثل هذا الإطار لأنه محصلة للثقافة التى يعيش فيها ، هو جزء نام فى جماعته ، وكجزء من هذه الجماعة يجب أن نفهم هذا الفرد ، أن نفهمه فى إطاره الاجتماعى (١) . ويقول لينتون إن فهم الدور المزدوج للفرد ، كفرد وكوحدة فى مجتمع ، سوف يعطينا مفتاح الحل لمشاكل السلوك البشرى .

وقد استطاع علماء الاجتماع أن يأخذوا بيد دراسة الإنسان بعيداً عن طريق مغلق عندما بدأوا يتحسسون العلاقات بين الفرد وثقافته . وبهذا الاتجاه أمكنهم ، إلى حد ، أن يتلمسوا المواضع الحقيقية للمشكلات ، وأن يسألوا الأسئلة الصحيحة ، وأن يلقوا أضواء حول الإنسان كحيوان اجتماعى منذ أن ترك تسلق الأشجار ... والإنسان هو هو سواء فى الغابة أو على شاطىء بحر أو فى واحة تحوطها الرمال ، أو فى مدينة تعلو مبانيها مناطحة السحاب .

---

(١) Ghase, Stuart : The Proper Study of Mankind, p. 62.

على هذا الأساس العريض تبدأ دراسة الإنسان وتفكيره التربوى فى إطار من ثقافته . وفى دراسة تفكيره التربوى سوف نتذكر دائماً أن وراء كل فرد جماعة وأن تعاون هذه الجماعة مؤثر على تقدمها ورقيها ، وأن الفرد بمفرده عاجز . حقاً إن الصغار من الحيوانات سرعان ما تنفصل عن الأم وتستقل وتسعى ، أما الطفل البشرى دون جماعة خلفه فاما إنه سيموت جوعاً ، أو إذا منحته الطبيعة غذاء فسوف ينمو على صورة من البلاهة ليس بينه وبين الإنسان النامى فى مجتمع إلا الصفات الجسمية . ويستطيع الإنسان المتحضر أن يعمل الكثير مما لا يستطيعه الهمجى المتوحش ، لأن الأول قد واتته فرصة تعلم (أشياء) أكثر ، ولأن ثقافته أدسم وأغزر . ولا يمنع هذا من القول إن الطبيعة الفطرية للإنسان الهمجى وقدراته التى ولد مزوداً بها عظيمة .

الثقافة والتاريخ

يعطينا هذا المفهوم عن الثقافة نظرة جديدة فى التاريخ وفى أنفسنا .. فالثقافة نتاج عملية تغير تدريجى ، ومع ارتفاع الستار عن مسرحية المدنية وهبوطها فان هذا لا يجب أن يقنعنا بأن من الثقافات ما قد سقط وتلاشى . فثقافة المصريين القدماء لم تندثر ولم تطمس من الوجود وإنما طرأت عليها تغيرات ، وكذلك الحال مع ثقافات فى أقصى الشرق وفى الغرب وعبر المحيطات .

ويولد الأفراد ويموتون ، ويتحول نمط الثقافة تحت ضغط الأحوال الجوية والاختراعات الحديثة والاحتياجات الداخلية ، وقد تتحرك الجماعات تاركة مكانها مهاجرة عبر الجبال أو عابرة المضايق . وتغير الجماعة طبيعة الأرض التى تعيش عليها ، وقد يكون الجو أكثر برودة أو أدفأ ، ومع ذلك فالأطفال الصغار ينالون الحماية والرعاية والحب ، ويتعلمون من الكبار أو يعلمهم الكبار عن عمد . ثم إذا دعا داع التفت الجماعة وتكاتفت لتدفع عنها عدواً يهددها . حدث هذا منذ آلاف من السنين ، ويحدث اليوم . وعلى الجماعة أن تبقى لتصارع الموت والزمن .

ولعل مفهومنا عن الثقافة هو الذى يعطينا الحقيقة عن البشر . هذه الحقيقة التى غفلها التاريخ منذ أيام هيرودوت إلى يومنا هذا ، فلم يركز التاريخ أشعته على الحقيقة وإنما ركزها على الأفراد .. على الملوك والأباطرة والقواد العسكريين ورجال الأديان وغيرهم ... على العظماء من الرجال الذين يرتفعون فوق مستوى الجماعة بعبقريتهم وقدراتهم أو لأسباب أخرى ... وكثير من هؤلاء الرجال أعملوا السياط فى أفراد الجماعة عندما دانت لهم القوة . ولم يصنع القائد الوقت وإنما ما حدث هو العكس تماماً .

التاريخ إذن بقياصرته وأباطرته أصبح سجلا لغير العاديين والعباقرة وثبتاً للبعض ممن اختلت وظائف بعض غددهم فأثرت على اتجاهاتهم ومسالكهم . وبهذا يضع التاريخ الهرم الاجتماعى مقلوباً ، قمته إلى أسفل . ولعل مفهومنا عن الثقافة يعيد للهرم وضعه الصحيح ، وإذا كان للملوك والحكام وحملة السيوف اللمع من رجال الحرب مواقفهم الحاسمة الحازمة ، فان قصة التاريخ الحقيقية تعنى المجتمع الذى حمى أطفاله ونظم موارده الغذائية عبر العصور .

ويهتم مفهوم الثقافة بالإصلاح الاجتماعى والاقتصادى .فلا خير فى مجتمع يتقدم صناعياً بصورة مذهلة وتبقى نظمه الاجتماعية فى عطن القديم وتخلفه . لا خير فى مجتمع ترتفع مداخن مصانعه وينتشر فى سمائه دخان أسود يشهد أن عضلات تلمع أمام الأفران الكبيرة وصلباً ينصهر بكميات هائلة ، ومع ذلك فما زالت الأفكار والمبادىء والمفاهيم والمعانى تغط فى تخلف عميق . على هذه الفجوة أن تزول ، فليس البشر مجرد آلات صماء ولكنهم عقول تفكر ، تفكر مسترشدة بقيادة رشيدة تعمل للصالح العام .

وإذا كانت ثقافة أى مجتمع تشمل قيما تشتمل عليه إنتاجه الفنى والمادى فهى أيضاً تهتم بما يفكر فيه ناس هذا المجتمع ، وما يأملون فيه وما مرت بهم من آلام . ولم يهتم التاريخ اهتماماً يذكر بالشعب والقوى العاملة . وجاء مفهوم الثقافة ليملأ هذه الفجوة . ولهذا فقد اندفع رجال الإعلام بوسائلهم الجبارة المؤيدة بالأجهزة والأدوات محاولين أن يكشطوا الطبقة العليا التى تغطى أفكار

الناس ، وظنوا أن محوها سهل ، وأنه بمجرد زوالها يصبح لهم السلطان على الأفكار فينقشوا عليها ما شاءوا وكيفما شاءوا . وأعتقد أن هذا مستحيل . فكل كائن بشرى يولد فى عالم قد حدد قبل أن يولد ، وقد حددته أنماط ثقافية موجودة فعلا .

ليس من السهل إذن أن تنقل جماعة من نمط ثقافى إلى آخر مهما استخدمت من وسائل إعلامية ، كما أنه ليس من المعقول أن يستطيع إنسان الطيران بهز ذراعية بشدة وقوة واستمرار . يريد الإنسان أن يقتنع ، على هدى من التجارب والمحاولات . ويريد الإنسان أن يؤمن داخلياً حتى يبدأ عملية التغيير .. وبناء العقول أصعب من بناء المصانع .

ولم يهتم التاريخ بما كان يحس به الناس، وبما كانوا يفكرون فيه وبمثلهم العليا .. فقد كان معظم الخلق على أديان ملوكهم ، وكان عمل الجماعات الأساسى استمرار بقائهم ووجودهم فبحثوا عن الغذاء والكساء والمأوى وحماية الصغار . والسؤال أين نجد سجلا لأفكار الناس ومثلهم بعيداً عن الضغوط العسكرية والسياسية ؟

يلوح لى أن سجل الفكر التربوى قادر – إلى حد – على إلقاء بعض الأضواء على هذه الأفكار ، فالفكر التربوى فى زمن ما ومكان ما قد عبر عن نفسه فى تعاليم وكتابات ولدتها عقول اتسمت بالرزانة والحكمة فى إطار من التأمل النظيف ابتغاء وجه الحق والعدل والجمال . عقول متحررة من ضغوط سياسية وعسكرية آثرت خير الجماعة ممثلة فى خير أفرادها .

ولكن المجتمع فى تطوره والبشرية فى نموها حتمت اتجاهات أخرى ، وهنا بدأ الصراع : فقديماً كان من الممكن أن تحيط مدينة أو دولة نفسها بسور عظيم وتكفى نفسها . ولكن الناس يتزايدون والمخترعات والاكتشافات تتقدم والعجلة التى كانت تحمل عربة يجرها إنسان أو حيوان أصبحت اليوم تحمل طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت . وكان على الأسوار العظمى أن تتحطم ، وما عادت المحيطات تفصل الشعوب وتحميها ، ولم يعد فى وسع المفكر التربوى

إلا أن يوسع أفق تفكيره عبر الحدود إلى أطراف الدنيا ليضع فى اعتباره ألواناً من التعاون الثقافى والاقتصادى والعسكرى والعلمى ، وألواناً من التهديدات تحتم عليه فى إلحاح أن يتنبه لها . وإذا كان الفكر التربوى قد تأثر منذ فجر حياة الإنسان على الأرض بالعوامل الاقتصادية والدينية فى المحيط الضيق الذى يجمع جماعة من الناس ، فهو اليوم أشد احتياجاً إلى التأثر بالعوامل الاجتماعية والسياسية بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية التى تلعب دوراً هاماً فى الصدارة .

ويهتم الفكر التربوى بما يطلق عليه اسم « سنوات التكوين » وهى تلك الفترة التى تتشكل فيها (شخصية الفرد) . وفى رأى البعض أنه لو عهد بالأطفال فى السنوات الست الأولى من أعمارهم للمؤسسات الدينية التى تشبعهم قيماً روحية لضمن المجتمع أفراداً صالحين قادرين على التعاون والتقدم فى ظل هذه القيم الروحية التى تؤكد إنسانية البشر . ولا يكاد يختلف العلماء المهتمون بالتربية فى أهمية السنوات الست الأولى من حياة الفرد حيث يكون أكثر قابلية واستعداداً لما يوجه نحوه (١) .

ويقول علماء الأجناس إن لأطفال أى شعب أو جنس نفس الأجهزة الجسمية ، ولكن منذ أن يولد الطفل يتعرض لخبرات تساعد على تشكيله فى الثقافة التى يجد نفسه فيها . فطفل الثالثة أو الرابعة قد تعلم مئات العادات وآلاف الكلمات وأساسيات اللغة التى تتكلمها ثقافه . كما أنه يتلقى آلاف الانطباعات التى لن يتذكرها شعورياً فى نضجه ورشده ، ولكنها سوف تطبعه بطابع معين ، كأن يكون يابانياً أو هندياً أو مصرياً أو فرنسياً ...

أما علماء الاجتماع فهم يؤكدون الجوانب التربوية التى تترك بصماتها عند الفرد ، كما يؤكدون أهمية المؤسسات التربوية المختلفة التى تؤثر على تشكيل الفرد وتكوين شخصيته .

---

(١) بل إن بعض العلماء يرون أن القدر الأكبر من القدرات العقلية (يتكون) فى السنوات الأربع الأولى من حياة الفرد ويؤكدون الأضواء هنا على أهمية المؤثرات البيئية .

وهناك أيضاً فئة علماء النفس الذين يعملون فى ميدان التربية وهؤلاء يحرصون على إبراز أهمية النشأة فى بواكير الطفولة . وهم يدرسون استجابات الأطفال ونموهم مستخدمين فى ذلك أجهزة معملية وآلات تسجيل أصوات وإحصاءات ورسوم بيانية ومعاملات ارتباط ومقاييس متنوعة ، وعقول إليكترونية و و .. الخ كما يتجه بعض علماء النفس التربوى إلى محاولة تحليل تفصيلات العمليات الحيوية التى يصبح الفرد بها حاملا للثقافة . ويلجأ علماء النفس إلى مساعدة علماء الأجناس للكشف عن الشخصية التى تخرج من ثقافة ما .

وهناك إلى جانب هؤلاء وأولئك جماعة الطب النفسى الذين يؤكدون أهمية المؤثرات الانفعالية على الأطفال ، ويقولون إن الخبرات المبكرة التى يتعرض لها الأطفال قد تشكل خلق الفرد بصورة لا يمكن نقضها . ويرتبط عمل الطب النفسى بعمل علماء الأجناس وعلماء النفس ، ولكن له صفة طبية جسمية ، ويلوح أن العادات الانفعالية ترتبط فى مراحل تكوينها بالعادات الجسمية . ومع ذلك فالظاهر أن علماء الطب النفسى قد توصلوا إلى حقائق ونتائج عن تفسير الدوافع والأسباب التى تؤثر فى سلوك الفرد أكثر مما توصل إليه غيرهم من العلماء المعنيين .

ويتفق العلماء فى تخصصاتهم الأربعة السابقة ، على أهمية توفر الأمن والعطف بالنسبة للطفل فى سنيه المبكرة ، ويقولون إن فقدان الأمن والعطف فى الطفولة سوف يؤدى إلى نتائج وخيمة نرى أمثلة منها فى المصحات العقلية أو التصرفات الانحرافية لأفراد يعيشون بيننا .

لم يعد المفكر التربوى اليوم قادراً على الإسهام والعمل السليم بدون الرجوع إلى غيره من العلماء المعنيين بالأمور الاجتماعية والنفسية والطبية . ولعل المفهوم الجديد للثقافة وما تشتمل عليه يتيح لنا الفرصة لأن نبرز فى تفكيرنا فى الأمور التربوية عوامل قد يكون أجدادنا قد أغفلوا جوانب منها . وجدير بنا ألا ننظر إلى الفرد بعيداً عن مجتمعه ، وألا نتجاهل الفرد تماماً مركزين على

المجتمع . هل فى الإمكان أن ندرس الفرد فى مجتمعه ، وأن نلون تفكيرنا التربوى بهذا الاتجاه ؟

« إن الطبيعة البشرية ليست هى ما ولد به الإنسان ولكن ما يصيره بتأثير العوامل المنظمة فى بيئته الاجتماعية(١)» فيتأثر الفرد بالعوامل والمؤثرات التى يتعرض لها فى هذه البيئة ، إلى جانب الغذاء ، الحب ، أن يحب غيره وأن يكون هو نفسه محل حب من الآخرين . وقد ساد اعتقاد خاطىء لمدة طويلة أن الإنسان يولد أنانياً وعدوانياً ، وأن عليه أن ينال من (التربية) ما يضع حداً لأنانيته وعدوانه . وقد أثرت هذه الفكرة على اتجاهات الكبار نحو الصغار ، كما أثرت على مجريات الأمور فى المجتمع .

° ° °

(١) Montagu, Ashley : Man, His First Million Years, p 89.